مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Journal of Social Sciences and Humanities
المجلد: 15/ العدد: 01 (2025)، ص 182 - 199

و اقع النخب العربية المثقفة من المثقف العضوي إلى المثقف المتأزم

Reality of the Arab elite intellectual from organic intellectual to Stressed intellectual

العايب ربيع باحث في دكتوراه تخصص الفلسفة العامة *
د/زيغمي أحمد
جامعة قاصدي مرباح ورقلة- الجز ائر، Rlaib85@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/12/09 تاريخ القبول: 2025/03/23 تاريخ النشر: 2025/06/11

ملخص:

تزايد الحديث عن دور النخب المثقفة في العالم العربي، في ظل تصاعد موجات الاحتجاجات عن الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية و السياسية التي تقودها الشعوب العربية داخل البلاد العربية، وإذاك يرفع أصحابها شعارات تنويرية غربية، فهي تحمل في مضمونها مطالب تدعو إلى تحقيق العدالة والمساواة، وترسيخ مبادئ حقوق الإنسان في الوطن العربي؛ وفي خضم إرادة الشعوب في استكمال مصيرها عادت إلى الواجهة حالة المثقف العربي المتأزمة بالسؤال عن جدواه، مهامه وفاعليته، خصوصا حينما حملت الشعوب العربية، مسؤولية التغيير على عاتقها. لهذا جاء موضوع هذه الورقة حول الأزمة التي مازالت تعصف بحاملي لواء الثقافة والوعي، في البلدان العربية، أو فئة الريادة في المجتمع أو ما يعرف بالأنتلجنسيا، خاصة بعدما استطاعت الشعوب أن تميز بين مثقف الميدان، ومثقف الكتب أو الأكاديمي، الذي انعزل عن مجتمعه وظل بعيدا عنه، الأمر الذي أوقعه في أزمة أفقدته مشروعيته وشككت في مصداقيته أمام عامة الناس، لهذا فإن المقال يتضمن مجوعة من الأهداف منها ما هو جوهري ومنها ما هو ثانوي. أما الأهداف الجوهرية فتتمثل في معرفة المثقف المتأزم ومهامه وفاعليته وتداعيات هذه الوضعية بين المثقف الميدان الواعي والمثقف غير الواعي. والثانوية فتجعل هذه الأزمة محط نظر ومساءلة، الهدف منها ليس فقط تعيين مكانة ودور المثقف في المجتمع، بقدر ما هي إعادة موضعته كذات فاعلة فيه.

* المؤلف المرسل: العايب ربيع، الإيميل Rlaib85@gmail.com :

كلمات مفتاحية: المثقف،الوطن العربي، أزمة، الثقافة، النخبة.

Abstract:

In the Arab world, as the waves of protests about the socio-economic and political conditions led by the Arab peoples increase in the Arab countries, the owners of which raise western anthem slogans, as they carry demands for justice and equality, and for the establishment of human rights principles in the Arab world; In the midst of the people's will to complete their destiny, the state of the Arab intellectual, who is determined to ask about his usefulness, his tasks and his effectiveness, especially when the Arab peoples were held responsible for the change. This is why the issue of this paper came about the crisis that still devastates the people of culture and awareness, in the Arab countries, or the class of leadership in society or what is known as sexual discrimination, especially after the peoples managed to distinguish between the intellectuals of the field and the intellectuals of books or academics, who were isolated from and kept away from their society. This was what I signed in A crisis that has lost its legitimacy and doubted its credibility before the public, so the article includes a group of goals, including what is essential and what is secondary. The fundamental objectives are to know the cultured, the tasks, the effectiveness and the consequences of this position between conscious and unconscious intellectuals. The second is to make this crisis a point of view and accountability, the aim of which is not only to define the position and role of the cultured in society, but also to reposition it as an actor in it.

Keywords: Crisis –culture-The Arab World- The intellectual

مقدمة:

إن المتأمل للواقع العربي اليوم، يلحظ ومن دون شك، حدة الأزمة التي يعيشها المثقف العربي على عديد الأصعدة، وأهمها على الإطلاق الصعيد الثقافي، ما أحدث جدالا حادا حول وضعية النخب الثقافية على اختلاف إيديولوجياتها ومرجعيات الفكرية التي تفكر وفقها. ـا كان المثقف هو حامل هموم الثقافة في المجتمع، والمسؤول عنها، اتجهت نحوه الأنظار، وكثرت حوله التساؤلات، بداية مع ولادة المفهوم (المثقف)، والمهام المنوطة به في محاولته إلى تحطيم قوالب الأنماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على الفكر الإنساني وعلى التواصل مابين أفراده، ومدى ارتباطه الفكري والمعرفي وحتى السياسي بأزمة مجتمعه؛ هكذا تنجلي أزمة المثقف العربي لتتكشف على سجالات عميقة، أضحت ميدانا خصبا للمساءلة والتنظير الفكري والثقافي، كما أضحى من الصعب فصل الأصل التاريخي لمفهوم المثقف في المجتمع العربي، عن التطور التاريخي والاجتماعي والسياسي لتطور هذا المجتمع، وخروجا من إشكالية التعميم التي تكاد تسم معظم الكتابات العربية التي تتحدث عن المجتمع العربي، إلى تشخيص أكثر دقة وعمق، يراعي طبيعة الموضوعات في الميدان الاجتماعي والثقافي، من هنا جاءت هاته الورقة البحثية، لتجيب على مشكلة فكرية، طرحتها أزمة المثقفين العرب المعاصرين في الفكر العربي المعاصر. ما هي أهم المنعطفات التي قلبت دور المثقف العربي، من فاعلية وعضوية إلى أزمة فعلية عصفت بحاملي لواء الثقافة في الوطن العربي؟ نبحث عبر متن هذه المشكلة: عن المقصود بلفظة المثقف، وما هي أدوار المثقف العضوي؟ وهل كانت له فاعلية ومصداقية في أوساط الجماهير الشعبية؟ ثم ما هو واقع النخب المثقفة في العالم العربي في ظل الأزمة؟ وما هي أهم الأسباب التي صنعت المثقف المتأزم في الوطن العربي؟ وهل استطاع التعبير عن قضايا مجتمعه وتحقيق طموحاته أم فشل في ذلك؟

أولا: المفهوم اللغوي والاصطلاحي للمثقف أو الانتلجنسيا:

1. مفهوم المثقف:

1.1. لغة:

لقد حمل لفظ المثقف مجموعة من المعاني، ففي اللغة العربية يذكر ابن منظور في لسان العرب: "ثقف الشيء ثقفا وثقوفة بمعنى حذقه، ورجل ثقف وثقف بمعنى حاذق وفهم"(منظور، صفحة 364) . لفظ المثقف هنا كما هو واضح غائب، واستعمل بدله، رجل ثقف، كما يذهب معجم المنجد في اللغة العربية المعاصرة إلى القول:"مثقف، ج مثقفون: متعلم متوسع في ثقافته «حفنة من المثقفين»: الطبقة المثقفة أهل الفكر والثقافة الذين يشكلون نخبة فنية أو اجتماعية أو سياسية" (حمودي، 2000، صفحة 167)

معناه أن بداية استعمال كلمة المثقف عند العرب كانت في المرحلة المعاصرة، أما في اللغة الفرنسية: فلفظ «Intellectuel» مشتق من «Intellect»، الذي معناه العقل أو الفكر أو ما يدل على أي شيء مرتبط بالعقل كملكة للمعرفة" (الجابري، 1995، صفحة 40).

بهذا المعنى يختلف لفظ المثقف عن لفظ الثقافة، الذي هو ترجمة لكلمة «Culture»التي تدل في معناها الحقيقي والأصلي على فلاحة الأرض كما يعرفها الأنثروبولوجي الانجليزي **إدوارد تايلور** ***Edward Tylor*** الذي قدمه في كتابه **"الثقافة البدائية"** عام 1871 بأنها: "ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع" (الحاج، 2000، صفحة 168).

2-1- اصطلاحا:

هناك مجموعة من التعريفات الاصطلاحية للمثقف، إذ يعرف المثقفون أو الأنتلجنسيا في معجم العلوم الاجتماعية بأنهم: "فئة الأشخاص الذين يمتهنون العمل الذهني المعقد والإبداعي على الأغلب، ويشتغلون بتطوير الثقافة وترويجها، وتظم المهندسين والمدرسين والأطباء والباحثين العلميين وأساتذة المعاهد والجامعات والأدباء والفنانين وذوي الكفاءات العالية من الموظفين..." (يفريموفا و سلوم، 1992، صفحة 217). ويعرف المفكر الماركسي **أنطونيو غرامشي** ***Antonio Gramsci*** المثقف بقوله: "كل إنسان مثقف، وليس لكل إنسان في المجتمع وظيفة المثقف" (سميث و كينتيهور، 1991، صفحة 353)، ومعنى ذلك أن المثقف، هو ذلك الإنسان العالم والعارف والأديب والفقيه، الذي يملك مجموعة من القيم والمفاهيم، أيا كان مصدرها، سواء عن طريق الشهادات الجامعية، أو المجتمع أو غيرها...، وانطلاقا من هذا يتضح لنا أن تعريف المثقف عند غرامشي يجب أن تتوفر فيه مجموعة من المعايير، ترتبط بمفهوم الثقافة، الذي يشمل كل شيء في المجتمع من سمات مادية، معنوية، فكرية، روحية، عادات، تقاليد، ممارسات وقيم وغيرها. وعليه فإن كل من ينتمي إلى هذا المجتمع، وتنطبق عليه هذه السمات، ويشارك المجتمع فيها يصبح مثقفا (جرار، 2003، صفحة 16)، وبذلك فإن حضور المثقف يكون فعالا في المجتمع، ويعمل على تغييره نحو الأفضل. وعند علي حرب المثقف هو: "كل من تشغله قضية الحقوق والحريات، أو تهمه سياسة الحقيقة، أو يلزم الدفاع عن القيم الثقافية، المجتمعية أو الكونية، بفكره و سجالاته، أو بكتاباته ومواقفه، قد يكون طوباويا أو عضويا، ثوريا أو إصلاحيا ...، قد يكون شاعرا أو كاتبا أو فيلسوفا أو عالما أو فقيها أو مهندسا..." (حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 1998، صفحة 37) .

هكذا فإن مسألة ضبط مفهوم المثقف تعد إحدى أبرز وأهم الإشكاليات التي عالجها العديد من الباحثين والمفكرين، وكل ينظر إليها بحسب اتجاهه الفكري والإيديولوجي، فمنهم من يتوسع في تعريفه، حتى يشمل جميع أهل العلم والمعرفة والأدب وبالتالي ما الفائدة من التسمية إذا كانت لا تكشف عن حقيقة وهوية المثقف ومنهم من يجعله صفة مقتصرة على فئة محدودة جدا ونادرة من الناس، من هنا تكمن صعوبة تحديد وضبط تعريف واضح متفق عليه للمثقف.

ولا ريب إذن أن المثقف الحقيقي أو مثقف الميدان كما أطلقنا عليه هو ذلك الفرد الفعال، المحرك والموجه، وهو كاشف حقائق المجتمع، بمعنى أنه المؤدي لدوره والمسؤول عنه، مقابل مصلحته، والدفع به نحو التقدم والنهوض، إن المثقف"هو الوجه الآخر للسياسي والمشروع البديل عنه" (حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 1998، صفحة 38)، أي أن دور المثقف لا يقل أهمية عن دور السياسي، بل يتعداه، وينوب عنه أحيانا أخرى في مهامه التنموية، في سبيل الخروج من الركود الذي أصاب المجتمعات العربية، وبالتالي فهو الربان الذي يسير بالمجتمع نحو الأفضل، من خلال أدائه للمهام والمسؤوليات الموكلة إليه. بغض النظر عن وظيفته، فنانا كان أو مدرسا، المهم هو أن يقوم بدوره داخل مجتمعه، وأن يتحمل مسؤولياته كاملة ليسهم في تغيير الواقع الثقافي، ليستحال واقع التحليل والفهم إلى واقع تغيير وتقدم. بمعنى أن مثل هذه الأشكال الثورية للمثقف تعزز الوعي لدى الشعوب لتؤول إلى تحويل فلسفة الإنسان من الصراع إلى البناء أو (التغيير). كما كان يقول كارل ماركس بأن الفلاسفة كانوا يحاولون فهم العالم بأشكال مختلفة، وأن المهمة من الآن فصاعدا هي تغييره. هذا هو الدور المحوري الذي يرتجى بلوغه. وإذ ذاك نتساءل: ما موقع المثقف العربي من جدليات تفعيل منظومة القيم والمسؤوليات في ظل تأزم الواقع الاجتماعي في الخطاب الثقافي الراهن؟

ثانيا. صورة المثقف العضوي في العالم العربي:

حمل المثقفون العرب في العصر الحديث، على عاتقهم تجديد الأفكار، وإحياء العلاقات الاجتماعية في المجتمعات العربية الراكدة، التي عانت ويلات الاستعمار الأوروبي، والتي كادت أن تجردها من قيمها، ومبادئها العربية الإسلامية، وأوشكت أن تطمس هويتها الثقافية من جهة، والثورة على السلطة السياسية المستبدة، والمطالبة بالتغيير من جهة أخرى، وهنا يمكن تشبيههم بمثقفي التنوير في أوروبا الذين مجدوا الحريات وطالبوا بإحلال قيم العقل والعلم محل سلطة الكنيسة (محفوظ، 2000، صفحة 60) . وهذا نزوع نحو العقل الحداثي، الذي هو على الدوام تحرري خلاق، متدفق بوعي، وموقظ لآخر يستلهم مقررات أكثر عقلنة، تؤشر لترسيم مبادئ وقيم العقل. أي إعادة توثيق هوية العقل الحداثي من خلال تمركزاته المتكثرة والتي تستبطنها مظاهر الحياة الثقافية الجديدة في العقلية الأوروبية التنويرية. وأصدق مثال على ذلك النخبة المثقفة في الجزائر في بداية القرن العشرين:" فالكاتب والمبدع والفنان، حمل على عاتقه مهمة تأسيس حرية التعبير، وتعميق التعددية الفكرية، والنضال الديمقراطي، ومواجهة القمع ضد الأحادية بأصنافها" (رتيلي، 2004، صفحة 33)، من هنا يتبين لنا أن دور المثقفين العرب، كان ثوريا بالدرجة الأولى، سواء على المستوى الداخلي، أي على مستوى الأوضاع السياسية السائدة، كطغيان السلطة واستبدادها، أو على المستوى الخارجي، كتنمية الوعي بالحرية والثورة لدى الجماهير الشعبية، ورفض الاستعمار الأوروبي.

ولقد تواصل تفاعل بعض المثقفين مع المجتمع، وأصبحت لهم رسالة اجتماعية، يدعون الناس إليها، بهدف المحافظة على مجموعة القيم والمبادئ العربية، فدعوا إلى نشر العلم والمعرفة، على عكس

بعض المثقفين، الذين فضلوا الانعزال، وقصروا العلم على أنفسهم فقط، "وهذا يبين الفرق بين من آمن بفكرة فآل على نفسه أن ينشرها في الناس ليعم نعيمها، ومن آمن بفكرة فقصرها على نفسه لينعم بها، ولا عليه بعد ذلك أن يشرك معه الناس في تعميمها" (محفوظ، 2000، صفحة 43). عموما، يمكن تحديد ادوار المثقفين العضويين أو المثقفين الميدانيين المطلوبين في المجتمعات العربية ، في خمسة أدوار رئيسية وهي: الانفتاح على الناس وعلى الثقافة الغربية، والتفاعل مع قضايا الوطن، وكذا تأكيد و إبراز هوية الوطن والمجتمع، تنمية وإنتاج المعرفة، تغيير الأوضاع السائدة، ونقد الواقع العربي وتنمية الوعي الجماهيري، و سنأتي على ذكر هذه الأدوار مفصلة فيما يلي:

1.2. الانفتاح و التفاعل:

من الأدوار الرئيسية التي لعبها المثقف العربي في مجتمعه، و المقصود به "الانفتاح على الناس والتفاعل مع قضايا الوطن" (رتيلي، 2004، صفحة 61)، إضافة إلى ما يوفره هذا الدور من أسباب لازمة لتوليد المعارف والثقافات، وصقل أفكار المثقف التي من شأنها أن تنهض بالمجتمع وتفتح له الآفاق وتبلورها. فلا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن المثقف المتأثر بشعبه ووطنه، هو مثقف فعال، يخلق الوعي ويعمم المعرفة في الوسط الاجتماعي، وبهذا يكون دوره استراتجيا، من خلال أفكاره التي يعمل على نشرها ،"فالأفكار هي التي تصنع الأمم والشعوب، لهذا فإن دور النخبة يتجسد في صناعة الأفكار والرؤى، التي تقود إلى تنقية الخيارات الاجتماعية وتحقيق التطلع الحضاري" (رتيلي، 2004، صفحة 61)

ولا يقتصر دور المثقف على التفاعل والانفتاح على الوطن والناس فحسب، بل يتجاوزه إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى (الغربية)، والاحتكاك بمكتسباتها التاريخية والتقنية، والعلمية والسياسية، ليعرف ما يتناسب مع وطنه، وما يميزه عن غيره ويستطيع المحافظة على هويته الثقافية "فاستيعاب المثقف لروح العصر والتكيف مع التطورات الثقافية والمتغيرات، كل هذا يساعده على القيام بواحدة من أهم مسؤولياته وهي البحث عن التفاعل الخلاق مع سائر الثقافات والحضارات" (جرار، 2003، صفحة 23)

2.2.الحفاظ على هوية الوطن و المجتمع:

تعتبر الهوية والثقافة بمثابة المقومين الفاعلين لكل مجتمع، إذ لا يمكننا الفصل بينهما، فهما يصبان ضمن نسق من المبادئ والقيم التي تتحكم في سلوك الأفراد، وتميز مجتمع عن آخر، وبذلك فالمثقف العربي يسعى دوما للحفاظ على هوية وطنه، وواجبه اتجاه مجتمعه وأمته، وأن يسخر عمله الثقافي للدفاع عنها ومواجهة التحديات، وشحذ الهمم والنفوس، وتعبئة المشاعر ضد الأعداء بما يحملونه من خطر الثقافات الدخيلة، والتوعية بمخاطرها في حالة الاعتداء عليها، كما يتجلى دوره في بناء ثقة المجتمع بنفسه وتحريره من الشعور بعقدة النقص. ومن الاغتراب والاستيلاب وضعف الثقة بالنفس، وتحرير الوعي الجماعي من الأغلال التي تكبله، عن طريق نشر المعرفة وتكوين وعي جديد، والعمل على تفجير الطاقات الفردية، والجماعية الكامنة في المجتمع (جرار، 2003، الصفحات 21-27). والغاية من

وراء ذلك هي الحفاظ على الهوية الوطنية والثقافة الشعبية من الضياع والذوبان في الآخر، وهو رهان النخب المثقفة و مهمتها الأصلية.

3.2. مهمة التغيير:

نعني به، ذلك التحول الجذري والفعال في أي مجتمع كان، ولا يمكن أن يتم هذا التغيير، إلا بمشاركة فعالة للمثقفين، الذين يسعون دائما إلى الثورة على الأوضاع السائدة في مجتمعاتهم، ونحن نختص المجتمعات العربية بهذا الشكل من الدونية والرجعية التي طالت الوعي بكل أشكاله، "وبديهي أن التغيير الذي يتوجب على المثقفين القيام به، لا يكون ناجحا و فعالا، إلا إذا توفرت فيه جملة من الشروط، و على رأسها معرفة المجتمع معرفة علمية دقيقة" (الجابري، 1995، صفحة 157). وتغيير الواقع الثقافي العربي المتخلف، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق جهد ثقافي كبير، يعكس درجة وعي المثقفين بمدى الضعف الذي آل إليه مجتمعهم. وفي هذا الصدد، يجب أن نرفع اللبس عن دور المثقف في التغيير، وموقف السياسي منه، "...فإذا كان المثقف يريد التغيير، و يريد التقدم نحو الجديد في حالة من التفكير تارة، و في حالات من المغامرة تارة أخرى، فالسياسي على العكس من ذلك، يخاف التغيير، ويسعى قدر الإمكان توهيم المجتمع بتغيير سطحي يحافظ على متن البنية الكلاسيكية بعناصرها المحافظة" (الزاوي، 2004، صفحة 4)، وبالتالي فهو تغيير وهمي وسطحي للأوضاع السائدة، على عكس المثقف، الذي يطالب بالتغيير الجدي.

4.2. النقد والتفكيك:

تعتبر النزعة النقدية من المكونات الرئيسية في شخصية المثقف، مهما اختلفت هويته ومرجعيته فالمثقف العربي في العصر الحديث، مارس النقد وداوم عليه، وذلك عن طريق العمل المسرحي، أو القصة، أو الفيلم النقدي الهادف،أو الدراسات التحليلية...،والنقد هو ميزة المثقف العضوي ودوره الأساسي، " فدور المثقف هو دور نقدي، والفكر الخلاق، الذي يجب أن يتمتع به المثقف من خصائصه الأولية هي "النقد"، والمثقف الذي يفقد حاسة النقد يتحول إلى "مثقف أرنب" (الزاوي، 2004، صفحة 4). وبهذا يكون المثقف مرآة مجتمعه، وموجهه وذلك بدفع البحث العقلاني نحو التقدم، "ويصبح المثقف ناقدا اجتماعيا على حد قول **كارل ماركس Karl Marx (1818-1883)**، كل همه التجديد والتحليل والعمل والمساهمة في تجاوز العوائق والعقبات، التي تقف طريقا أمام الوصول وبلوغ مجتمع متقدم، أكثر إنسانية وعقلانية" (الجابري، 1995، صفحة 43). ومن خلال ما تقدم يمكن إيجاز أدوار المثقف العضوي في الوطن العربي، خلال المرحلة الاستعمارية وما عقبها مباشرة، من مسيرة البناء والتأسيس للوطن والأمة العربية.

3. فاعلية المثقفين العرب ومصداقيتهم على المحك:

بعد تحليلنا لمختلف الأدوار التي تقع على عاتق المثقفين العرب والواجب القيام بها داخل المجتمعات، نحاول تقييم تلك الأدوار ونتبين مدى فاعلية هذه النخب، وما إذا استطاعوا فعلا التأثير على

الأمة العربية شعبا وسلطة، والأهم من ذلك، هل تمكنوا من الوصول إلى الهدف المنشود منهم، وهو التعبير عن معاناة الأمة في شتى الميادين وحمل همومها ونقل انشغالاتها؟

هذا وتجدر الإشارة إلى وجود فئتين مختلفتين من المثقفين، تمايزت واختلفت فاعليتهم في المجتمع، فالأولى كان لها أثر كبير في أوساط الشعب، أما الثانية لم تجد آذانا صاغية، ولعل هذا راجع إلى بعدها عن الجماهير، وسعيها المتواصل إلى البحث عن المصلحة الذاتية: الفئة الأولى ومن خلال تقييم دورها، نجدها "قبل السبعينات، أي في الفترة الاستعمارية، كان دورها أخصب وأقوى وأبعد أثرا شعبيا، وكانت الكلمة تجد الأصداء، كانت مؤثرة، لأنها ما تزال عفوية، صادقة وتعتمد الدين والقومية، والوطنية والحرية، وترفض الاضطهاد والقهر" (الجابري، 1995، صفحة 190)، وما يعكس ذلك، هو دور المثقف في التاريخ العربي المعاصر حيث حمل معه فكرة الوطنية في مرحلة الاحتلال الاستعماري، وأهتم بتنمية وعي الشعب بالحرية والاستقلال، واستطاع بذلك كسب ثقة الشعب والترويج لأفكاره. ومن داخل السلطة تمكن بعض المثقفين من "اختراق المؤسسات الرسمية بأسلوب مغاير، وأبدوا رغبة جادة في التغيير، وممارسة الديمقراطية، وخلق الشروط اللازمة لحيوية الثقافة المطلوبة. أما الفئة الثانية فقد أدت دورا مشبوها، تغلب عليه المطامع الشخصية، جنحت إلى استمالة النزوع التثاقفي المستوحى من التماهي الوثيق بين الفرد والسلطة. أو كحال بعض مثقفينا المتغربين ممن أبدوا تواطأ مع المستعمر، وكانت أداة في يده، فانعزلوا بذلك عن المجتمع، وظلوا في غربة عن حاجته، وقد كان عجز هؤلاء واضحا، حيث أنهم لم يخطوا خطوة واحدة، وبالتالي بقي المثقف العربي في مرحلة التفكير الإستكاني أمثال: رفاعة الطهطاوي، خير الدين التونسي، عبد الله النديم، أحمد فارس الشدياق، محمد عبدو، رشيد رضا، وشكيب أرسلان وغيرهم، فالحلول التي قدمها هؤلاء المفكرون كانت إما توفيقية أو تلفيقية، والمشكلة أنها عجزت عن المضي قدما نحو دفع المجتمع العربي إلى التقدم، إن لم تزد هذه الحلول في الطين بلة وتعقيدا للمشكلة (الجابري، 1995، الصفحات 155-165)

وعموما هي أزمة عميقة، مست حتى المثقف الغربي، إذ أفردت المجلة الفرنسية "**ليرLIRE**" عنوانا ملفتا للنظر، ذات مرة، مفاده: هل مازال مثقفونا يصلحون لشيء؟ في الولايات المتحدة الأمريكية، كذلك تحدثوا عن جدوى المثقف اليوم، في ظل ما يشهده العالم من تطورات، وذلك في اتجاهين: أولاهما تمثل في ثورة المعلومات، وشبكة الاتصالات العالمية، وما تركته من دور للمثقف خصوصا في مجال إنتاج المعارف والأفكار، إضافة إلى تحول وتبدل المثقف، من الشخص الاجتماعي الذي يحيط بالناس ويؤثر فيهم، إلى ذلك الشخص الأكاديمي المنغلق في برجه العاجي، هدفه الأساسي التقدم الأكاديمي لا التغيير الاجتماعي،مما يعني أن المثقف اليوم أصبح منعزلا عن الواقع الاجتماعي، بعيدا عما هو سائد في مجتمعه، لا يدرك مشاكله ولا حجم معاناته، وأضحى محصورا بين أسوار الجامعة، وبالتالي فقد فعاليته التي تميز بها في يوم من الأيام. حينئذ يسعنا الإقرار أن المثقف العربي اليوم يعيش حالة اتهام من طرف

النقاد، اتهم فيها بأنه: "فقد فاعليته، لأنه لم يعمل بخصوصيته...، وهي إنتاج الفكر وصناعة المعرفة" (حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 1998، صفحة 145)

إن معيار فاعلية المثقفين هنا، هو مدى قدرتهم على خلق أفكار جديدة وتغيير نماذج التفكير القديمة المنتهجة على أرض الواقع، فإذا تمكن المثقف العربي من تجاوز الواقع الفكري وإنتاج أفكار جديدة، نستطيع الحكم عليه بأنه فعال، وإن لم يتمكن من ذلك فهو عاجز عن أداء دوره في التغيير، وبعيد عن دوره الوظيفي، والأساسي المنوط به. إذ أن "المثقف الحقيقي، ليس ذلك الذي يحمل فكرا أو ثقافة عالية فقط. بل هو الذي يضيف إليها القدرة على تحديد الأبعاد والرؤى التي تحملها، وهو لا يكتفي بوضوح الأفكار في ذهنه فحسب، بل يجتهد لتحديد وتعيين مختلف أبعاد وانعكاسات تلك الرؤى، ويحدد نماذج تلك الأفكار" (محفوظ، 2000، صفحة 23). كما أمكن قياس فاعلية المثقفين العرب ومصداقيتهم، بمدى صدق الأهداف التي ينادون بها، وخصوبة الأفكار، والمشاريع التي يحملونها وكذا مصادر فكرهم ومبعث أرائهم. فالمثقف يجب أن يكون واعيا بما ينتجه من أفكار ورؤى مستقبلية، تكون غايته في ذلك النهوض بأمته ضدا عن أشكال الجمود والركود الذي تعاني منه، ومسايرة ركب الأمم المتقدمة. على أن يملك نظرة استشرافية تتسم بالكلية والعموم وليست بالفردانية والانغلاق. فالمثقف العضوي لا يجب أن يتبع هوى الجماهير- على حد تعبير مالك بن نبي - بل عليه أن يصدح بالحقيقة مهما كانت طبيعتها.

ثانيا: أزمة المثقفين العرب المعاصرين وأسبابها الفاعلة:

1. أزمة النخب المثقفة في الوطن العربي:

بعد أن كان للمثقف دور خصب وقوي، وأكثر فاعلية في الأوساط الشعبية، خاصة في المرحلة الاستعمارية وأصدق مثال على ذلك، الحركة الإصلاحية الثقافية، التي قادها عبد الحميد بن باديس في الجزائر، أين سعى فيها إلى تنوير عقول الشعب، ومحاربة سياسة التجهيل التي اتبعها الاستعمار الفرنسي، فالتف حوله الشعب وناصره، وعمل بالمبادئ التي جاء بها. غير أن هذا الدور الثوري، بدأ يشوبه الزيف، وأخذ نجمه يأفل، فحلت العشوائية بدل الجدية، وكانت النتيجة ابتعاد المثقفين العرب عن مواقع التوجيه، بحيث أصبحت أقوالهم على حد قول الله تعالى في سورة النور الآية 39: «كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه». فأزمة المثقف العربي، هي نتيجة حتمية لأزمة المجتمع العربي عموما، وأزمة الثقافة العربية الإسلامية خصوصا، فالمثقف على حد تعبير عبد الله العروي: "مسكون بأزمة أبدية، ومرشح بطبيعته لأن يكون مأزوما لاعتبارات تاريخية و ذاتية" (عمارة و اخرون، 1991، صفحة 69). إن المناخ الثقافي في المجتمع العربي لا يحقق شروط النماء والتقدمية الثورية الفاعلة وسط أفكار ورؤى متأزمة، وهذا راجع إلى ركود المجتمع وتخلفه من جهة، والاضطرابات والمشاكل النفسية التي يعيشها من جهة أخرى، ويضيف "جورج طرابيشي" في السياق نفسه: "أن المثقف مأزوم بحكم انتمائه إلى مجتمعات مأزومة" (عمارة و اخرون، 1991، صفحة 69)

تحيلنا هذه المعادلة إلى الاعتقاد بأن المجتمع المأزوم، هو السبب الأول في وقوع المثقف في مشاكل وأزمات ثقافية تجعلها تضاهي الحالات المرضية في شدتها، لأنه نشأ وترعرع فيه، وبالتالي ورث عنه هذه الأزمات، و يشبه هنا زكي نجيب محمود أزمة المثقف العربي المعاصر بأزمة المحب، الذي يعرف ما يريده، لكن وسائل الوصول إلى ذلك ممتنعة ومستحيلة عليه، فالمثقف المأزوم إذن في نظره "إنسان حمل في رأسه أفكارا، وأعتقد بأنها أفكار لا بد من بثها، لتطوير الحياة وأشكالها، لكنه حين هم بنشرها، صدمته العوائق التي تحول دون ذلك النشر" (محمود، 1981، صفحة 12) ، والمقصود بالأفكار، هو محاولة المثقف الجمع بين طرفين، يكادان يكونان متضادين، هما المحافظة على الهوية التاريخية من جهة، والحرص على مواكبة ما هو سائد في العالم الغربي من جهة أخرى، وهذا ما أبان عنه رجال الإصلاح في معادلة إيصال الأصالة بالمعاصرة. ونتيجة لذلك كان أن وقع المثقف في مشكلة مستعصية، هي إشكالية الحضارة، وهي في نظره أزمة أخلاقية، تتأرجح بين الأصالة والمعاصرة ونحن نراها ثنائية عمقت مأزق الفكر العربي.

ولعل الأصل في وقوع المثقفين العرب المعاصرين في هذه الأزمة، يعود لظروف وأسباب، أغلبها نابع من تحولهم إلى العقلية أو الذهنية النخبوية، من خلال تهافتهم على المناصب والألقاب، ولهثهم وراء الشهرة على حساب عامة الشعب، مما جعلهم يهملون دورهم ورسالتهم الأساسية، وكل هذا راجع بدوره إلى غياب الوعي وكذا الانتساب إلى روح الأمة وتاريخها، الذي يعد من المشكلات التي تهدد النخب المثقفة، وهذا أكبر دليل على تخلفها، وضعف فاعليتها، ما ينعكس سلبا على حلولها لقضايا مجتمعاتها، إذ تتخذ هذه الحلول صورة الانتهازية، يحققون مآربهم الشخصية من خلالها، ناهيك عن محاولة البعض الاندماج في قطاعات أخرى كالسياسة، وكذا محاولة التوفيق بين هذه القطاعات، بيد أن هذا التوفيق صعب، بل ومستحيل، خاصة في الواقع العربي، لما يحمله من تناقضات وأيديولوجيات فكرية متعددة ومتمايزة، مما انجر عنه هروب المثقفين إلى المحيط السياسي، والانقياد لأوامر مراكز النفوذ، خاصة بعد تأكدهم من استحالة أداء رسالتهم وواجباتهم في ظل هذا التوفيق، بين مختلف المجالات (الإبداع الفكري، الثقافي، السياسي،...) وعلة ما فعله المثقفون – أي الهروب إلى قطاعات أخرى- أنهم أحسوا بعزلة وانكماش، ناشئين من قضية كبرى، وهي مدى مصداقية حرية التعبير في الأقطار العربية، أو الحرية المقيدة، حيث كانت الأفكار والإبداعات التي يجود بها المثقف العربي، خاضعة لقوة أو سلطة أعلى منه، تمنعه من إبداء رأيه بكل حرية (الجناحي، 1979، الصفحات 70-71)

إن اشتغال المثقفين بالسياسة، جردهم من أقوى سلاح لهم، وهو الاستقلالية والفاعلية الفكرية، ما تمخض عنه انغلاق فكرهم على نفسه، وحجبه لهم عن المشاكل التي تعاني منها مجتمعاتهم، ونتيجة ذلك فقدانهم للمصداقية، وإجهاض روحهم الثورية وتهميشهم، فما هو ملاحظ اليوم، إن علاقة المثقفين بالمجتمع، تتسم بالتباعد والتنافر، تعبر عنها تلك العقلية النخبوية، التي يتعامل بها أغلبهم مع قضايا المجتمع والأمة، فنجدهم منعزلين في أبراجهم العاجية، قلما تعنيهم مشكلات مجتمعهم، والصيغة المعبرة عن هذه الوضعية يوردها عبد الإله بلقزيز في "حالة الطلاق بين النخبة والمجتمع، أي بين الثقافة العالمة

والثقافة الشعبية، ما أدى بالضرورة إلى فشل مشاريع النخب (ثقافية منها و سياسية)" (بلقزيز، 1992، صفحة 120). وإذا أردنا الذهاب بعيدا. فالمثقف العربي المعاصر وقع في أزمة فعلية، في غياب مصداقية التأسيس لمنطق النزوع التواصلي بينه وبين الشعب، وأصبح لا يمثل إلا نفسه، وجميع إنتاجاته الفكرية تعبر عن ذاتيته، التي أصبحت غريبة عن المجتمع ومطالبه؛ إن "حياة الناس أصبحت عند المثقف، موضوع عمل أو تحليل، ولم تتواصل نسجا علائقيا حيا، يتحرك فيه، وأكثر من ذلك كله، قد يكون معزولا بما يرسمه لنفسه من طموحات شخصية أو فئوية، يكون فيها الشعب ممرا نحو تحقيقها ...،فإنه لم يعد طرفا في التفاعل، وأصبح يوجه إليه خطابا من بعيد وغير مضمون الوصول" (لبيب، 1992، صفحة 29)

أما عن درجة التأزم التي وصل إليها المثقفون العرب، نذكر نموذج المثقف في الأردن، إذ ساهم في تأزمه عدم نقد أو تقييم أعمال وأدوار المثقفين هنالك، وما زاد الأمر سوءا هو تلك الأحكام والمجاملات للمثقفين والمبدعين، الذين يقابلونهم بمجاملات مماثلة، من خلال كتاباتهم ويبحثون عن مشاجب ليعلقوا عليها إخفاقاتهم وتقصيرهم، وضعف أدائهم، بالإضافة إلى نزوعهم إلى ممارسة الإرهاب الفكري، حتى لا يجرأ أحد على انتقادهم، وكان أيضا لوسائل الإعلام دور هاما في ظهور أزمة المثقفين، فمن خلال الدور المغشوش الذي تقوم به، بالترويج للمثقفين والمبدعين الغائبين والفاشلين، على أنهم ناجحين، والإساءة للنماذج الناجحة والمبدعة لتدميرها وإحباطها (جرار، 2003، صفحة 151)، كذا يتضح منطق الخطاب الثقافي الحداثي لدى الجابري، إذ يشير على مثقف اليوم بالخذلان والفشل الفكري والأخلاقي، إذ يقول: "أصبح القائمون من المثقفين وأشباههم، على أمور الفكر خليطا من قدرات متفاوتة وخبرات فجة، ومنظرين سياسيين في الهواء، ومنافقين بمائة وجه ووجه، وأساتذة جامعات، لم يعيشوا الواقع يوما، ومؤرخين فاشلين، ونقاد أدب، وكتاب وصحافيين وشعراء يجرون الذيول...، وهكذا غاب الواقع المعاش، وغلبت الأحلام بالأماني محل الوقائع، وبنيت عليها أكوام من الرغبات، ما لبثت أن انهارت عند أول صدمة" (الجابري، 1995، صفحة 191).

2. الأسباب التي صنعت المثقف المتأزم في الوطن العربي :

1.2. المرجعية الدينية:

لقد ظهرت الحركات الأصولية والسلفية الإسلامية، و تجذرت في المجتمعات العربية، وكان جل اهتمامها الإطاحة بالنظم التحديثية من جهة، ومحاولة إرجاع المجتمع إلى الدين في نقائه وصفائه الأولين، من جهة أخرى، فاتخذت بذلك من الدين والتراث وسيلة لتحرير شعوبنا ومجتمعاتنا من التخلف والتبعية الحضارية؛ يمثل هذا الاتجاه المثقف السلفي الذي يمثل "حالة من الانكفاء على الذات، في موقف دفاعي، لا يعي العلاقة مع أوروبا في حجمها الطبيعي، ولا يراها إلا في إطار الصراع الديني والعرقي" (عمارة و اخرون، 1991، صفحة 71)، فهو يتميز بالتقوقع على ذاته، ويقف موقفا رافضا لما يقدمه الغرب، ساعيا دوما إلى إثبات هويته وذاته، وأعمال المثقف السلفي لا تبرز إلا من خلال الرد على الغرب الرأسمالي، وبالتالي فقد سعى هذا الاتجاه إلى إثبات النهضة في التراث العربي الإسلامي.

ولعل أساس الأزمة التي يعيشها المثقف الإسلامي اليوم، تتجلى أيضا من خلال المواقف السلبية له، وخاصة الفكرية، تجاه العقل الغربي فأصبح يرفض المنظومة الفكرية الغربية ومبادئها التنويرية، التي كانت السبب في الإجهاز على الدين والثقافة واللغة العربية حسب رأيه، وبالتالي كان رفضه لكل ما هو غربي رفضا صارخا وقويا، لأنه اعتبره شكلا من أشكال الاستباحة للذات وللهوية الثقافية والحضارية، وفي المقابل اعترافا بالآخر (بلقزيز، 1992، الصفحات 36-37)، وهكذا جاءت السلفية كرد فعل أخلاقي خال من أي برنامج اقتصادي أو اجتماعي أو علمي، على قضايا سياسية أو اقتصادية، وجاءت على حال من "الخواء الفكري، بدليل العودة إلى السلف، والشعور بالضعف تجاه العلم الحديث، ومكاسب الفكر الأوربي، فالسلفية باختصار هي هيمنة الماضي على الحاضر وغياب العقل واعتماد النقل" (عمارة و اخرون، 1991، صفحة 71)

ولما كان الفكر الإصلاحي السلفي في العصر الحديث، الذي بدأ مع محمد بن عبد الوهاب نصيا لا عقليا، من خلال اعتماده على النصوص القرآنية في تفسير أحوال المجتمع، واستنباط الحلول الممكنة منها للخروج والنهوض بالمجتمع العربي نحو التقدم، وبناء الحضارة، جاءت حلول الإصلاحيين جزئية، وقاصرة على بلوغ الهدف المنشود، لاعتمادها على منبع واحد فقط، ولم تلجأ إلى مصادر أخرى كالعقل، هذا ما جعل المثقفين السلفيين يقفون حائرين خاصة أمام التطور والرقي الذي شهدته الدول الأوروبية، وعدم القدرة على مجاراة هذا التقدم الهائل، فالمثقف الذي اعتمد الدين كمرجعية وحيدة له، وقع في أزمة لم يتمكن من التخلص منها، بحكم أنه نظر إلى المجتمع وقضاياه من زاوية واحدة (حنفي و اخرون، 2005، صفحة 27)

ويرى محمد أركون في هذا الصدد، بأن المثقف العربي الذي يرجع إلى التاريخ العربي الإسلامي لتبرير سلوكات عملية، واجتماعية واقتصادية جديدة، ما هو إلا واقع في خداع نفسه، لأن الرجوع إلى التاريخ ليس سوى حجر عثرة في وجه التقدم، بدل أن يكون الطريق الذي يوصلنا إليه، والسبب الرئيسي في ذلك هو عدم مسايرة البنيات الثقافية القديمة للأهداف والمعطيات الجديدة، كما أدى التمسك بالتاريخ و الإرث الثقافي الإسلامي، إلى جعل خطابات مثقفينا خطابات فاعلة بصورة سلبية، لم تجلب سوى التبعية والتخلف (الحبيب، 2007، صفحة 231)

وهكذا فأثر المرجعية الدينية السلفية كبير على بعض المثقفين العرب، إذ زادت من انغلاقهم على أنفسهم، وأخذت تحركهم بعيدا عن مشاكل وقضايا الأمة العربية بإتباعهم منهج أخلاقي بعيد عن طموحات الشعب، وبهذا الصدد يسأل عبد الله العروي: "ما نتيجة استعمال المنهج السلفي لحل مشاكلنا، وقد أكد أنه يعرف المنهج السلفي، بأنه اللجوء إلى ضمانة الماضي لإنجاز إصلاحات فرضها الحاضر، قبل أن يجزم بأن اللجوء إلى منهج الماضي، يمنع من فهم إنجازات العصر الحديث، التي تضمنت كلمات: حرية، مساواة، و كرامة، مفهوما موضوعيا وبانعدام الإدراك ينعدم إمكان الإنجاز الفعلي" (الحبيب، 2007، صفحة 230)، لقد اتهمت المثقفون السلفيون بجملة من الأوصاف السلبية، التي وصفهم

بها المحدثون، أو المثقفون الليبراليون، نتيجة ابتعادهم عن الواقع، والنقل والتقليد الأعمى، وغياب روح الإبداع، وغياب الموضوعية، والعقلانية، ناهيك عن القياس الفارغ، ونسخ تجارب خارجية، ماضية أو أجنبية؛ كما قال المحدثون إن لغة التراثيين وأفكارهم، والقيم التي يدافعون عنها، أو يتبنونها، أصبحت جميعها بالية، غريبة عن العصر، وبعيدة عن المنطق السليم، ووصفوها بالخرافة، وربطوها بالعقد النفسية الجماعية، القائمة على انفصام الشخصية، وتمجيد الماضي، والإدعاء الفارغ، وتعظيم الذات والعقلية السحرية، والانغلاق على الذات والظلامية والتعصب الديني والعرقي والكسل والإتكالية وغيرها من الأوصاف السلبية (غليون، 2004، صفحة 43)

2.2. المرجعية الغربية:

يشكل الإطار المرجعي للمثقف عاملا أساسيا وضروريا لعطاءاته وكذا وإنتاجه الفكري، ولما كان لبعض مثقفينا ممن امتزجت ثقافتهم العربية بالثقافة الغربية، كمحصلة حتمية للاستعمار الأوروبي، نبعت لديه أزمة مرجعية، لأنه أصبح أسير ثقافة غربية لم ينتجها هو، هكذا برز المثقف الليبرالي الذي ينادي بالفكر الغربي – لاسيما وأنه منبهر بالحضارة الغربية- ونتيجة لاقتناع فئة كبيرة من المثقفين العرب بأفضلية النظام السياسي والاقتصادي والعسكري الأوروبي، الذي من خصائصه الاغتراب في المكان والزمان، وشدة القسوة على الماضي، والتوغل في إنكار الهوية والأصول، فنادوا بليبرالية عربية، يحلمون فيها بمجتمع عربي يسوده العلم والتربية، وهي مبادئ الفلسفة الليبرالية الغربية، هكذا، وبالرغم من الاختلاف الكبير في الظروف والمعطيات، فهي أفكار مفروضة على بنية تقليدية محافظة متفاعلة مع التراث (عمارة و اخرون، 1991، صفحة 71). وإلى أبعد من هذا افتتنت شريحة كبيرة من المثقفين التحديثيين العرب بالثقافة والحضارة الأوروبية إلى درجة أنهم تخلوا عن ثقافتهم راغبين في استبدالها بالثقافة والحضارة الغربية، وكنموذج على هؤلاء "سلامة موسى" الذي سعى إلى اقتلاع المجتمع العربي من جذوره الثقافية وغرسه في تربة أوربية حين قال: " إن مصلحتنا أن نغرس في أذهان جميع العرب في مصر والعراق وسوريا وشمال إفريقيا، أنهم أوروبيون سلالة وثقافة وحضارة وأنهم يجب عليهم أن يصيروا مع أرقى الشعوب الأوروبية، يتثقفون بثقافتهم، ويتعودون عاداتهم" (حنفي و اخرون، 2005، صفحة 124)، فافتتان المثقفين العرب التحديثيين المعاصرين بالفكر الأوروبي، وجعلهم منه مرجعيتهم التي يستقون منها مبادئهم وأفكارهم، ولد لديهم أزمة، سواء مع أنفسهم أو مع مجتمعهم، حيث أصبحوا بعيدين كل البعد عن تراثه و عاداته وهويته الثقافية، وكانت مشاريعهم على حساب فهم التراث واستيعابه "مما أدى إلى اتساع حجم «الخلف» بين النخبة والجماهير...، وبالتالي التأثير على درجة تمثيلها ومصداقيتها " (الجابري، 1995، صفحة 120). وتتواصل انتكاسة المثقفين التحديثين، بتراجع دورهم في المجتمع وفقدان الفاعلية والمصداقية، في ظل غياب التفاعل بينهم وبين المجتمع، وبالاستيراد الأعمى لأفكار الغرب عن الحرية

والمساواة والديمقراطية وقضية العدالة، وبالتالي، أصبح من الضروري إعادة النظر في هذه المقولات والبحث في مضامينها، ووسيلة الوصول إليها.

ولا ريب أن تمظهر حدة الأزمة في تبني مجموعة من المثقفين العرب، لاتجاهات متعددة في الفكر الأوروبي، قد أحالت الخطابات الفكرية عموما، والأيديولوجية خصوصا أرضا خصبة لتجسيد ثقافة التغريب والمحاكاة من لدن المغلوب اقتداء بالغالب، التي تنبثق من الفكر الأوربي بمنظومته القيمية، والأخلاقية والروحية، حاملة معها مقولات العلمنة والتغريب، والاصطدام بالدين وقطيعة الجذور بالتراث والتاريخ، والتشكيك بالهوية، فثمة مخرجات دالة على الانسياق التغريبي الصارخ، ممثلة في فكر وأطروحات إدوارد سعيد، الذي تبنى فلسفة الانغلاق على الفكر الأوروبي، معتبرا أن المثقف الحقيقي هو كائن علماني، أما الجابري فقد حاول إعادة بناء مفهوم المثقف العربي، معتبرا أن الفكر الأوروبي مرجعيته الأصيلة؛ ولعل أبلغ تشبيه للحال التي وصل إليها المثقف العربي، قول زكي نجيب محمود، إذ أقر أن المثقف العربي التغريبي، "يفرح بالثقافة الغربية الجديدة، فرحة الأطفال باللعب والهدايا، يقبلونها ولا يحللونها، و يلمسون أسطحها ولا يتعمقون إلى ما ورائها، فهؤلاء يفزعهم أن تذكر لهم شيئا عن تراث عربي، ينبغي له أن يخرج إلى الضوء ليحيا بنا و نحيا به" (محمود، 1981، صفحة 69)

هذا النقد اللاذع موجه إلى دعاة التغريب، من مثقفي الأمة العربية، يعكس مدى ضعف إنتاجهم الثقافي، الذي صبغ بصبغة سياسية غربية، وأضحى غير مجدٍ، فتراجع بذلك دورهم الريادي الطلائعي، وأصبحوا يحتمون وراء أقنعة الحرية والديمقراطية، والدعوة إلى التمدن. وقد المرجعية الغربية من الأسباب الفعلية لمحنة النخب المثقفة في الوطن العربي، خاصة إذا قارنا بين حال المثقفين قبل السبعينات، والحال التي وصلوا إليها في الوقت الراهن، فقد فشلوا في تقديم فكر قوي شامل، يحمل هموم المجتمع العربي وتطلعاته، وإذا كان الأمر في الماضي مجابهة الغرب، والتصدي لهم، وخلق ذات عربية منفصلة ومتفردة، فقد انتهى القرن الحالي بإزالة الهوية القومية نفسها، وإلى حالة من التبعية للغرب، ليس بينها وبين العبودية إلا الاسم، ومن نتائج سيطرة الغرب على أفكار مثقفينا، نذكر تغير خطابهم وعطاءهم الثقافي، الذي أضحى ذو طابع أدبي وفني وليس فلسفيا أو علميا، أما العطاء الثقافي فقد كان معظمه مترجما عن الإنجليزية والفرنسية، هذا إذ لم يكن سياسيا أصلا فقد أضحى مصدر عيش للمثقفين (الجابري، 1995، الصفحات 192-193)، لقد غلب النقل على الإبداع والعطاء، وألفت كتب، أغلبها في الثقافة العامة، ظل تأثيرها محدودا، كشمعة في الليل البهيم، غالبا ما يرجع مؤلفوها إلى الاستشهاد بقول هذا الفيلسوف أو ذاك العالم. هكذا نشأت طبقة من المثقفين، كل همها نقل الثقافة الغربية، والدعوة إلى اتجاهاتها المعارضة للاتجاه الإسلامي الأصيل، ومن أمثلة هؤلاء: سر أحمد خان في الهند، ولطفي السيد، وطه حسين وعلي عبد الرازق في مصر، وساطع الحصري الذي نشأ في تركيا ثم انتقل إلى البلاد العربية، إضافة إلى عزت قرني، وعبد الرحمان بدوي، وفؤاد زكريا، وكذلك سلامة موسى، ممن ربطوا مراكبهم وأشرعتهم بالغرب للتوثيق.

وكما سبق وأن انتقد المثقفون السلفيون، أصحاب المرجعية الدينية، فكذلك انتقد المثقفون الليبراليون والتحديثيون، أصحاب المرجعية الغربية، أشد انتقاد ووصفوا "بأن موقفهم معاد للتراث والهوية والثقافة المحلية، وبالصليبية، والعبث الفكري، وفقدان الموضوعية و اللاعقلانية، وقيل عن أفكارهم بأنها ليست إلا تقليدا أعمى، ونسخا لكتب الغرب، ووصف تحاملهم على التقاليد المحلية، وعقلانيتهم العالمية، بالعدمية القومية والكفر والطائفية والاستلاب الثقافي" (غليون، 2004، صفحة 43)، وبالتالي آلت نتيجة هذا التأثر بالغرب إلى الخروج من بوتقة مشاكل مجتمعاتهم، دون أن يولوا أي اهتمام بها.

3.2. السلطة السياسية:

إضافة إلى المرجعية الدينية بكل أبعادها، والغربية بكل اتجاهاتها، نجد للسلطة السياسية تأثير بالغ على حياة النخبة العربية المثقفة، هذه القضية التي تكاد تكون كلاسيكية في المجتمعات الغربية، ولكن في مجتمعاتنا العربية، كانت وما تزال متأزمة، بحكم المواجهة الدائمة والقلق القائم، بين السلطة والمثقف، توصف"بأنها علاقة يحكمها الشك وعدم الثقة على الأقل، وأحيانا يحكمها التناقض والعداء" (جرار، 2003، صفحة 60). وعلى العموم كان هذا العداء من قبل السلطة للمثقف قائما منذ القديم، وسر هذا القهر الممارس على المثقفين، أنهم يتصدون للحكام بكشف مؤامراتهم، ومناهضة استبدادهم الذي يمارسونه عليهم وعلى مجتمعاتهم، التي ليست واعية بتلك المؤامرات، التي تحاك ضدهم، والتي يقع على المثقف عبء فضحها، الأمر الذي يستغيض السلطة، فترد عليه بأغلظ الردود، من أجل إخماد عزيمته، وإسكات صوته ذلك أنه إذا فضح مؤامرات السلطة فسيزعزع أركانها واستقرارها.

في السياق ذاته، يذهب أبو القاسم سعد الله، إلى القول: "إن المثقفين يلاقون ضغطا شديدا، لكي يسايروا إرادة الحاكم المطلق، الذي يريد فرض آرائه، فإذا عارضه المثقفون، اتهمهم بالتخريب أو التعفن الفكري، وما على المثقفين في هذه الحالة، إلا أن يطيعوا أو يستمروا في تمردهم، وبالتالي يعرضون أنفسهم إلى أقسى أنواع الاضطهاد، وبالتالي معاملة أسوء ومصير أبشع" (سعد الله، 1976، صفحة 41)، ينجر على هذه المعاملة، أن التفكير يكون دائما خاضعا لمصدر يعلو عليه، ويقبل أحكامه بلا مناقشة، وبالتالي يؤدي إلى الخضوع للسلطة، والذي مآله التحجر والجمود.

فالعامل السياسي يظهر بقوة في تعميق الهوة وزيادة جراح المثقفين الحالمين بمجتمع تسوده القيم الإنسانية العليا، وتظل الأزمة الثقافية هي التي أنتجت نظم سياسية مريضة في المجتمعات العربية، "...أما روح الأزمة التي أنتجت لنا هذا النظام السياسي المترهل هي أزمة ثقافية، اختلطت فيها هموم المثقف بهواجس الخوف وإرضاء السلطان والنزعة الفردية والانتصار للنماذج الإيديولوجية الفاشلة أحيانا، وهذا كله على حساب عدم إلقاء السمع لهواجس المواطن الجزائري(والعربي عموما) والرغبة في إعادة بنائه من الناحية الثقافية" (بلعقروز، 2019)

من صور الممارسات السلطوية التي شهدها القرن العشرين، وبالرغم من تميزه بحالة حراك ثقافي واجتماعي، بلغ ذروته في الحرب الأهلية العربية، وامتد إلى ثورات الربيع العربي منذ مطلع هذا القرن، إلا أنه انتهى بانتصار السلطة على المثقفين، وكأنموذج لهؤلاء نجد "سعد الدين إبراهيم"، الذي قضى سبع سنوات في السجن، فقط لأنه دعا إلى تجسير الفجوة بين المثقف والأمير، وما هذه المحاولة إلا دليل على رفض السلطة لبناء هذا الجسر، بينها وبين المثقف، وإن كانت هناك دعوة لإقامة هذا الجسر، فقد يكون هذا الجسر ذهبيا يلتقي فيه المثقف والأمير، وهذا مستبعد وقد يكون جسرا فضيا أو خشبيا،- وبالطبع فهو خشبي على الأرجح- ، يزحف عليه المثقف وهو مطأطأ الرأس باتجاه الأمير، داعيا له بالسلامة وطول البقاء، وطوبى للسائرين على جسر خشبي (زكريا، 1975، صفحة 15). وهذا الخيار لا يبرره إلا فشل المعادلة التواصلية بين المثقف والسلطة. فلا السلطة أدركت فاعلية الدور التوعوي، التثقيفي للعارف، ولا المثقف استلهم من واقعه وبيئته آليات التثاقف السلطوي، الذي يحقق التجانس والتماهي المعدل في واقع المعترك الثقافي الجديد. فالمثقف هو بمثابة حلقة وصل بين السلطة والجماهير في كل حال من الأحوال . لكن يبقى عطاء المثقف إقليميا، وكتابته بضاعة لا يمكن أن تجتاز الحدود، إلا بأمر من الأمير، أما دور النشر الرسمية، فهي مسخرة لنشر إيديولوجية الأمير، أما الجوائز التي منحتها الدولة، فهل أعطيت مرة لمثقف مكافح؟ (الجابري، 1995، صفحة 195)

خاتمة:

في الختام إن المثقفين العرب المعاصرين، بالرغم مما قدموه لمجتمعاتهم، إلا أنهم تاهوا عن طريق المعرفة وإنتاج الفكر الصحيح، النابع من ذاتية الفرد وأصالة المجتمع، ووقعوا في مشكلات تعددت أسبابها منها: المرجعيات المستعارة التي اعتمد عليها المثقفون في طرح أفكارهم،إضافة إلى الظلم والاستبداد الذي تمارسه السلطة السياسية في البلاد العربية، إذ أحكمت قبضتها على أفكار المثقفين ووجهتها لخدمة أغراضها ومصالحها، مما أضطر الشعوب إلى اللجوء إلى إرادتها الجماعية وتوحيد صفوفها ومطالبتها بالتغيير وإحلال القيم الإنسانية السامية التي تنعم بها شعوب العالم، فكان البحث جاريا وسيظل عن مثقف الميدان الفعلي والعضو الحقيقي في المجتمع الذي يعبر عن هموم شعبه ويحمل راية الحق و لا يخشى في ذلك لومة لائم، خصوصا بعد أن وصلت أيدي السياسي إلى الجامعات ومخابر البحث ودور النشر وحتى إلى منابر المساجد...الخ، فأصبح النقد لا يتجاوز الحناجر. إلا أن ما يشهده العالم العربي اليوم هو مزيج من وعي وانقياد لا يجب أن نغفل عنه، وفي نفس الوقت هو مساءلة للمشتغلين بالحقل الثقافي الذين فقدوا بريقهم، وتنصلوا من مسؤولياتهم بأن جعلوا الأزمة أزمة شعب وأمة. وعلى العموم لا يمكن أن نغفل عن حقيقة مفادها أن العقل العربي عقل مفتون بالقادة والزعماء والرؤساء الوطنيين، كما يقول علي حرب في كتابه أزمنة الحداثة الفائقة: "... على هذا النحو تتعامل النخب الثقافية العربية مع رموزها وأعلامها، أي بلغة لاهوتية أبوية تشبه اللغة الدينية أو السياسية التي يتعامل أصحابها مع الحاكم بصفته النبي المخلص أو البطل المحرر أو الأب القائد أو الزعيم الأوحد" (حرب، أزمنة الحداثة

الفائقة، 2005، صفحة 208). فعلى المثقف العربي اليوم، أن يبلغ إلى ذهنية الشعوب العربية و أن يدرك اهتماماتها و أزماتها كما عليه أن يتبنى خطاب الواقع فينزل إلى الشوارع والأحياء و أن يعايش ويتواصل مع مختلف الفعاليات والأطراف حتى تكون له القدرة على ممارسة مهام التنوير والتحرير.

قائمة المراجع:

1) ابن منظور. لسان العرب المحيط. بيروت: دار لسان العرب.
2) أبو القاسم سعد الله. (1976). منطلقات فكرية. تونس: الدار العربية للكتاب.
3) الطاهر لبيب. (1992). الثقافة و المثقفون في في الوطن العربي (الإصدار ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
4) أمين الزاوي. (2004). في البحث عن نخبة سياسية مثقفة. مجلة الثقافة ، 3-4، صفحة 4.
5) برهان غليون. (2004). إغتيال العقل (الإصدار ط3). بيروت: المركز الثقافي العربي.
6) تركي علي الربيعو. (10 10, 2005). ما دور المثقف في دول الخليج. تم الاسترداد من al-jazirah: www.al-jazirah.com.sa
7) جيوفيري نويل سميث، و كينتينهور. (1991). أنطونيو غرامشي وقضايا المجتمع المدني (الإصدار 1). (فاضل جتكر، المترجمون) دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر.
8) حسن حنفي، و اخرون. (2005). حصيلة العقلانية و التنوير في الفكر العربي المعاصر (الإصدار ط1). بيرت: مركز دراسات الوحدة العربية.
9) حسين الملاك. (08 08, 2005). قراءات في كتاب محنة المثقف الديني مع العصر. تم الاسترداد من alahad: www.alahad.com
10) زكي نجيب محمود. (1981). هموم المثقفين (الإصدار ط1). القاهرة: دار الشروق.
11) سهيل الحبيب. (سبتمبر, 2007). معالم في خطاب النقد الثقافي المعاصر خلال العقود الثلاثة الاخيرة من القرن العشرين. مجلة عالم الفكر ، 1، صفحة 231.
12) صبحي حمودي. (2000). المنجد في اللغة العربية المعاصرة (الإصدار ط1). بيروت: دار المشرق.
13) صلاح جرار. (2003). المثقف و التغيير(قراءات في المشهد الثقافي المعاصر (الإصدار ط1). لبنان: مركز الدراسات والنشر.
14) عبد الاله بلقزيز. (1992). إشكاليات المرجع في الفكر العربي المعاصر (الإصدار ط1). بيروت: دار المنتخب العربي.
15) عبد الرزاق بلعقروز. (2019). فشل النظام السياسي مرده فشل النظام الثقافي للمجتمع الجزائري. الموعد اليومي (2498).
16) علي حرب. (2005). أزمنة الحداثة الفائقة (الإصدار ط1). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
17) علي حرب. (1998). أوهام النخبة أو نقد المثقف (الإصدار ط2). بيروت: المركز الثقافي العربي.
18) علي حرب. (2000). حديث النهايات(فتوحات العولمة ومآزق الهوية) (الإصدار ط1). بيروت: المركز الثقافي العربي.
19) فؤاد زكريا. (1975). اراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة.

20) كميل الحاج. (2000). الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي (الإصدار ط1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
21) لحبيب الجناحي. (مارس, 1979). من قضايا النخبة في الأقطار العربية. مجلة الأصالة ، 56، الصفحات 70-71.
22) محمد رتيلي. (2004). بحثا عن الحرية أو سقوط المثقف العضوي. مجلة الثقافة. 4، صفحة 33. الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية.
23) محمد عابد الجابري. (1995). المثقف العربي همومه وعطاؤه (الإصدار ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
24) محمد عمارة، و اخرون. (1991). إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر (الإصدار ط1). مركز دراسات العالم الإسلامي.
25) محمد محفوظ. (2000). الحضور و المثاقفة(المثقف العربي و تحديات العولمة) (الإصدار ط1). بيروت: المركز الثقافي العربي.
26) نايف مهيلب المهيلب. (01 06, 2007). أزمة المثقف العربي. تم الاسترداد من adabihai: www.adabihail.com.
27) نتاليا يفريموفا، و توفيق سلوم. (1992). معجم العلوم الاجتماعية (الإصدار ط1). بيروت: الشركة العالمية للتجارة و التسويق.